الدستور الأخلاقي في الحج من قوله تعالى: {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِے اِ۬لْحَجِّۗ}

2026-05-08

الحمد لله الذي شرع الحج وجعله ميدانًا لتزكية النفوس، وتطهيرا للقلوب، وتهذيبا للأخلاق، فسبحانه من إله، فَرَضَ الحَجَّ تَرْبِيَةً لِلنُّفُوسِ وَتَهْذِيبًا، وَتَشْوِيقًا لِرِضْوَانِهِ وَتَرْغِيبًا، فَضْـلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، دعا عباده إلى حرمه ليجزي المحسن بإحسانه ويغفر للمسيء ذنبَه. وجاء بهم حفاة عراة ليذكروا يوم القيامة وكربَه. وأوقفهم موقف العبودية ليعرف كلّ عاقل ربَّه. فمَنْ هاجر إلى بابه وَسِعَةَ كرمِه أُزيل همُّه. فمَنْ حجّ إلى بيته ولم يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدته أُمُّه. وأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا ونَبِيَّنا مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ. وصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وحَبِيبُهُ، أَرْسَلَهُ ربُّه إِلَى النَّاسِ مُصْـلِحًا وَمُزَكِّيًا، وَعَلَى الفَضَائِلِ دَلِيلاً وَمُرَبِّيًا، فكان صلى الله عليه وسلم خَيْرَ مَنْ أَوصَى وَوَجَّهَ، وَأَرْشَدَ ونَبَّهَ، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، وكشف الله به الغمّة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، مَنِ اقتَدَى بِهِ هَدَأَ بَالاً، وَسَعِدَ حَالاً وَمَآلاً، فجزاه الله خير ما جازى نبيّاً عن أمّته، ووفّقنا جميعاً لاتّباع سنّته، وحشرنا يوم القيامة في زمرته، وجعلنا من أهل شفاعته، اللهم آمين.

رسولٌ كريمٌ هاشميٌّ ممجَّدُ * لقد خصّه المولى بأرفع رتبةِ

حريص علينا ساعيٌ في نجاتنا * رؤوف بنا قد حاز أعظم رحمةِ

ألا يا رسول الله إنِّيَ عاشقٌ * وحقِّك فاطْفِ نار شوْقي ولَوْعتي

ألا يا رسول الله إنّك سيّدٌ * جوادٌ فجُدْ للعبد منك برؤيةِ

ألا يا رسول الله عبدك شائقٌ * إليك فجُدْ عزمًا عليه بزَوْرةِ

لئن عظمت منّي الذنوب فأنتَ لِي * شفيعٌ وحاشا أن أُرَدَّ بخيْبةِ

عليك صلاة الله ثم سلامهُ * بلا منتهى والآل ثمّ الصّحابةِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. جوهرة الكمال. وسيِّد الرجال. وعلى آله عقود الجواهر النفيسة واللآل. وصحابته بحور الكرم والفضل والنوّال. صلاة تمنّ بها علينا بحجّ بيتك الملحوظ بعين التعظيم والإجلال. وتجعلنا بها ممّن وقف بعرفة وحلق ولبّى وطاف وسعى وزار قبر نبيّك قبل حلول الآجال. وتبلّغنا بها من رضاك ورضاه غاية المقصود والآمال. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة: {فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِے ٱلْحَجِّۗ}، نحن اليوم مع آيةٍ من أعظم آيات التربية في كتاب الله، آيةٍ لو تدبّرها الحاج حق التدبّر لخرج من حجه إنسانًا جديدًا، بقلبٍ طاهر، ولسانٍ نظيف، وروحٍ متجرِّدة من شوائب الدنيا. آية عظيمة جمعت أصول الأخلاق في الحج، بل جمعت تهذيب الإنسان كله في رحلة إيمانية فريدة. آية جامعة، ليست مجرّد توجيه عابر، بل دستور أخلاقي شامل، يبيّن أنّ الحج ليس طقوسًا جوفاء، بل هو مدرسة كبرى لتزكية النفوس وإصلاح القلوب. أيّها المسلمون. يقول ربنا جل في علاه: {فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ}، أيْ: مَن أحرم بالحج، وألزم نفسه بهذا الركن العظيم، ونوى الدخول في هذه العبادة العظيمة، ولبّى نداء الله، فقد اِلتزم بميثاق أخلاقي قبل أن يكون نسكًا عمليًا. ثم جاءت ثلاث قواعد كبرى: {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِے ٱلْحَجِّۗ}، كأنّ الله يقول: إنّ الحج ليس مجرّد طواف وسعي، بل هو تربية للنفس، وكَبْح للشهوات، وضَبْط للسان، وتطهير للقلب. لأنّ الحاج حين يُلبّي قائلاً: (لبّيك اللهمّ لبّيك)، فهو لا يُعلن مجرّد حضور جسدي، بل يُعلن استسلامًا كاملًا لله، يَخلع ثياب الزينة، ويَلبس لباس الإحرام، كأنه يقول: (يا رب، جئتُك بقلبٍ خاشع، ونفسٍ تائبة، ورُوحٍ متجرِّدة من الدنيا)، فهل يُعقل بعد ذلك أن يَرفث؟ هل يليق به أن يَفسق؟ هل يليق به أن يُجادل ويُخاصم؟! أيّها المسلمون. ثلاثة نواهي جامعة لأصل الأخلاق: أوّلًا: فلا رفث، أيْ طهارة اللسان ومراقبة الجَنان، فالرفث ليس مجرّد كلمة! الرفث سقوطٌ في مستنقع الشهوات، وانحدارٌ في مستنقع الفحش والبذاءة. الرفث: هو كل كلامٍ يخدش الحياء، كل لفظٍ يثير الغرائز، كل حديثٍ يُخرج الإنسان من مقام العبودية إلى حضيض الشهوة. أيها الحاج، أنت في

ضيافة الله! فكيف يليق بضيوف الرحمن أن تتلطّخ ألسنتهم بالقاذورات؟! والحاج في ضيافة الرحمن، فكيف يليق به أن يُطلق لسانه فيما يغضب الله؟ وفي الحديث المتّفق عَلَيْهِ عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: سَمِعْتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقولُ: ((منْ حجَّ فَلَم يرْفُثْ، وَلَم يفْسُقْ، رجَع كَيَومِ ولَدتْهُ أُمُّهُ))، أيُّ طهارة أعظم من هذه؟! أيُّ ميلاد جديد ينتظرك؟! تأمّلوا هذا الوعد العظيم! رجوع بلا ذنوب، صفحة بيضاء، بداية جديدة! لكن الطريق إلى ذلك: ضَبْط اللسان. وفي الحديث المتّفق عَلَيْهِ عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((من كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليقُلْ خيرًا أو ليصمُتْ))، أيّها المسلمون. ثانيًا: ولا فسوق، أيْ الإستقامة الكاملة، وتَرْك المعاصي والآثام، والفسوق كلمة عظيمة، معناها: الخروج عن طاعة الله. وليس الفسوق فقط إرتكاب كبائر الذنوب، بل يدخل فيه كل معصية: نظرة حرام، كلمة كذب، غِيبة، نميمة، ظُلم، أذى، التعدّي على الآخرين، أكْل أموال الناس بالباطل، قال الله تعالى في سورة الأعراف: {قُلِ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ اَلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالِاثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ اِلْحَقِّ}، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((سِبابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وقِتالُهُ كُفْرٌ))، فكيف بحاجٍ في بيت الله، يسبّ أو يشتم أو يظلم؟! أيها الحاج، أنت تترك أهلك ومالك، وتتحمّل المشاق، فهل يُعقل أن تجمع بين الحج والمعصية؟! الحج ليس فرصة للمعاصي، بل هو موسم للتوبة، ومن المؤلم أن ترى بعض الحجاج: يزاحم بعنف، يشتم، يخاصم، وربما يظلم غيره، ثم يقول: (أنا في الحج)!، أهذا حج؟! يا عبد الله، الحج ليس لقبًا، بل سلوك. أين قول الله تعالى: {ولا فسوق}؟!، أيّها المسلمون. ثالثًا: ولا جدال، أيْ صفاء الصدر وسلامة القلب، في مدرسة الصبر وتهذيب السلوك، والجدال هو النار التي تحرق الحسنات! وهو سبب الشحناء، وفساد القلوب، كم من حاجٍ دخل الحج بقلبٍ طيّب، ثم خرج بقلبٍ ممتلئ بالغضب والخصام! وفي الحديث الذي رواه أبو داود والطبراني عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربَضِ الجنَّةِ لمن تركَ المِراءَ وإنْ كان مُحقًّا))، أيها الحاج، ليس المهم أن تنتصر لنفسك، بل المهم أن تنتصر لدينك وأخلاقك! والجدال المنهي عنه هو: المخاصمة، رفْع الصوت،

الغضب، الإصرار على الباطل، والحج في حقيقته امتحان حقيقي، مدرسة للصبر: هناك زحام شديد، تعب، حر، طول انتظار، وهنا تظهر الأخلاق، هنا يظهر صِدق الإيمان، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يملِكُ نفسَه عندَ الغَضبِ))، أيّها المسلمون. ما سر هذه التوجيهات؟ لماذا نهى الله عن الرفث والفسوق والجدال؟ لأنّ الحج ليس رحلة جسد، بل هو رحلة روح! ليس انتقالًا من بلد إلى بلد، بل انتقال من حالٍ إلى حال! من الغفلة إلى الذكر، من القسوة إلى الرحمة، من الأنانية إلى الإحسان، ولكن واقع مؤلم نعيشه، نرى اليوم من يحج، لكنه: يخاصم في الطواف، ويغتاب في المخيّم، ويؤذي في الزحام، أيُّ حجٍ هذا؟! أين أثر الآية الكريمة؟! {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِے اِ۬لْحَجِّۖ}، الحج ليس صورًا، ولا شعارات، الحج أخلاق تُترجَم على أرض الواقع. أيّها المسلمون. فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَاحْرِصُوا عَلَى تَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللهِ، وَتَخَلَّقُوا بِأَخْلاقِ الحَجِّ الْحَقَّةِ، وَكُونُوا أَشَدَّ احْتِرَاسًا مِنَ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَاجْعَلُوا مِنْ مَنَاسِكِ الحَجِّ دَلِيلاً عَلَى مَبَادِئِكُمْ وَأَخْلاقِكُمْ، وَاقْتَفُوا فِي ذَلِكَ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم، تُفْلِحُوا فِي دُنْيَاكُمْ، وَتَسْعَدُوا فِي آخِرَتِكُمْ. ((وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)). إخواني حجّاج بيت الله الحرام: لا تنسوا وأنتم في تلك البقاع المقدّسة الطاهرة حيث تُجاب الدعوات. وتُنال الرغبات. ما عليكم من حقّ الدعاء لوطنكم. ولولاّة أموركم. بأنْ تسألوا الله تعالى لبلدنا الجزائر دوام نعمة الأمن والطمأنينة. والإستقرار والسكينة. حتى يبقى موحَّد الصّفّ. ملتئِم الكلمة. وأن تدعوا لجميع بلاد المسلمين بِلَمِّ الشمل. وتحقيق الوحدة. في مشارق الأرض ومغاربها. إنه تعالى وليّ ذلك والقادر عليه. أيّها المسلمون. حُقَّ لِمَنْ شاهَدَ السَّائِرِينَ إِلَى مَكَّةَ المكرّمة وَهُوَ قَاعِدٌ أَنْ يَحْزَنَ وَيُشْفِقَ. ولِمَنْ رَأَى الْوَاصِلِينَ إلى الكعبة المشرّفة وَهُوَ مُنْقَطِعٌ أَنْ يزعج ويَقْلَقَ، غير أَنَّ الْمُتَخَلِّفَ لِعُذْرٍ، شَرِيكٌ لِلسَّائِرِ فِي الأَجْرِ؛ ففي صحيح البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ؛ فَقَالَ:((إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟! قَالَ: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؛

حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ)). قال ابن العريف المالكيّ رحمه الله وهو يعبّر عن حرارة شوقه. وبُعده عن الحرميْن الشريفيْن:

يَا سَائِرِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ * سِرْتُمْ جُسُوماً وَسِرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحَا

إِنَّا أَقَمْنَا عَلَى عُذْرٍ وعنْ قَدَرٍ * وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ كَمَنْ رَاحَا

اللهم اجعلنا ممّن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، اللهم طهّر ألسنتنا من الرفث، وطهّر جوارحنا من الفسوق، وطهّر قلوبنا من الجدال والخصام، اللهم اجعلنا من عبادك الذين إذا حجوا تغيّرت قلوبهم، واستقامت أحوالهم، وحسنت أخلاقهم، اللهم أصلح شباب المسلمين، وردّهم إليك ردًا جميلًا. اللهم انصر إخواننا المستضعفين في كل مكان، اللهم كن لهم ولا تكن عليهم. اللهم وفّق حجّاجَنا إلى البِرِّ والتّقوى، ومِن العَمَل الصالح ما ترضَى، واجعل اللهم سفرهم سعيدًا، وعَوْدهم إلى بلادهم حميدًا، اللهم اجعل حجّهم مبرورا. وسعيهم مشكورا. وذنبهم مغفورا. وعملهم متقبَّلا مأجورا. ورجوعَهم سالما غانما موفورا. اللهم اغفر لنا ولوالدينا، ولمشايخنا، ولمن علّمنا، وللمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً وسائر بلاد المسلمين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربَّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ